تعريف "بالتجمّع اللبناني لتطوير التحليل النفسي"(ALDeP)
ومحاضرة لرنيه روسيّون

في 30 تشرين الأول 2010، إنعقد اللقاء العلني الأول " للتجمّع اللبناني لتطوير التحليل النفسي" (ALDeP). المجموعة الأولى التابعة للجمعية العالمية للتحليل النفسي في العالم العربي، وذلك في صالة محاضرات أوتيل لو غابريال. وكان لقاء ذو شقين: تعريف بالجمعية من قبل أعضائها المؤسسين، ومحاضرة لرونيه روسيّون حول "ركائز التحليل النفسي: الترابط والتحويل".

خُصص القسم الأول للتعريف العام بالجمعية، أهدافها، تطلعاتها في مجال البحث وتنشئة المحللين النفسيين، واسهامها بنشر التحليل النفسي في لبنان. فكانت كلمات موجزة، هادفة وغنية بالتساؤلات لأربعة من أعضائها المؤسسين:

ماري تريز خير بدوي، موريس خوري، منى شحوري شرباتي، وفيقه أبو حبيب كلاّسي

شرحوا فيها السياسة العامة للإنفتاح على التيارات التحليلية المختلفة، الانتساب والتواصل مع الجمعيات العالمية، الدقة والصرامة في التنشئة، إلى جانب المهارة في الخلق التي تُعتبر من أولويات ممارسة المحلل النفسي. وأخيراً كان هناك طرح جدليّ حول تناقض التفتيش عن الحقيقة المطلقة، هدف كل علم، وخطر خسارتها عندما ننظمها.

تأسس "التجمع اللبناني لتطوير التحليل النفسي" (ALDeP)، على يد خمسة محللين لبنانيين، أعضاء في الجمعية العالمية للتحليل النفسي IPA. واعترفت الدولة اللبنانية بها رسمياً في 26 آذار 2006 (الجريدة الرسمية في 2009/4/2).

انضمت بعدها إلى "الجمعية العالمية للتحليل النفسي" التي اعترفت بها رسمياً في كانون الثاني 2010، كأول مجموعة تابعة لها في الدول العربية. وهذه المسيرة تنطلق من القناعة على أن من مصلحة التحليل النفسي حالياً ألا يبقى على هامش تيار تحليلي عالمي، يضم جمعيات غنية، متنوعة ومتكاملة علمياً: 70 جمعية حول العالم و 12 ألف منتسب.

انطلاقاً من هذه الرؤيا، تكلمت رئيسة الجمعية، **ماري تريز خير بدوي** عن تعرجات الجمعية العالمية للتحليل النفسي التي اقتنعت، ولو على حسابها، أن التصلب المؤسساتي لم ينفع إلا لزيادة صرامة العقيدة في التحليل النفسي وانفصاله عن الواقع. كما وأن النزعة الصفائية احتجزته في برج عاجيّ منقسم إلى جمعيات عديدة تقف كل واحدة منها وراء متراس لغة خاصة محكمة، متحجرة، حصرتها بمعارك قاتمة ومميتة. ولكن الخيبات المتكررة حثّتها لإعادة تنظيمية مؤسساتية، أعطتها نفحة جديدة من الإنفتاح وقبول الفوارق. وهذا ما مكنها من الاستمرارية والتطور في الممارسة والتنشئة التحليلية في كافة أقطار العالم.

التحليل النفسي حالياً، تتابع **م. ت خير بدوي** "هو رهان تعددية النماذج النظرية وتنوع الممارسة العيادية التي تدور في فلك الجمعية العالمية IPA، التي تحاول حالياً احتوائها وتشعّبها بضمان الدقة والصرامة في تنشئة المحللّ النفسي الراسخ في مصاعب العالم الحالي والمعطيات العصرية الجديدة:

إنه رهان ممارسة التحليل النفسي في العالم المعاصر، إنه العهد الغير مشروط للمحللّ النفسي تجاه هذا المشروع الأخلاقي الذي هو مهنة التحليل، في اللحظة التي يبدأ فيها تنشئته.

لذا، ولضمانة انتقال المعرفة، وللدفاع عن تنشئة المحلل في وجه ما أسماه فرويد "التحليل النفسي الهمجي أو الفظّ"، أنشأ ال IPA أو الجمعية العالمية للتحليل النفسي في 1910".

وبعد أن وسّعت فكرة القيم المشتركة التي عليها توحيد المحلّلين حالياً، خَلُصَت **م. ت خير بدوي** عند فكرة إيصال المعرفة برهانها على مستقبل الأجيال الواعدة، مع التذكير "بما لا يقبل الجدل بأن التنشئة لا تخلّق محللاً، فالشغف والرغبة هما الحافز الأول. التنشئة تعطي الوسائل اللازمة لممارسة تقنية، ولكن أساساتها لا يمكن أن تعطى إلى المحلل، الا عبر مروره بتجربة التحليل الشخصي، كما بواسطة التحصيل بسياق يمتدّ على عدة سنوات، يهدف إلى إيصال مبدأ الأخلاقية التحليلية التي تمنح المريض الحرية والإستقلالية".

هذه الفكرة الأخيرة مهّدت لكلمة **موريس خوري** المتمحورة حول الركائز الأساسية في المؤسسة التحليلية. بالنسبة إليه، تأسيس جمعية تحليلية هو المآل لمسيرة تبدأ بالشغف: شغف الأصل، الأصول: هو نهاية، رغم أن فعل التأسيس يندرج في الوقت عينه مع منظار البناء والتطور.

هذا الشغف الأولي يأتي غالباً بصدفة لقاء (كتاب لفرويد مثلاً) ويبدأ التفتيش الذي يرتقي نحو رغبة المشاركة، التعميم ونقل المعرفة: عندها تصبح المؤسسة لا مناص منها.

يكمل **م. خوري** بتعداد بعض الثوابت التي تجعل من جمعية التحليل النفسي قابلة للحياة:

"لنأخذ الواقع العيادي كمثل، مفاجآته، وانتكاساته. والكلّ متوازن بواسطة الاطار التحليلي الذي يحتويه: الغير متوقع والانتكاسات الخاصة بالمؤسسة من جهة، وصلابة كيانها من جهة أخرى".

رهانٌ آخر يخرج عن المألوف: "الأبقاء على الثوابت الأساسية العيادية والنظرية الفرويدية (التداعي الحرّ، التحويل، الحياد العطوف، التفسير التحليلي، اللاوعي، الحياة الجنسية الطفولية ... الخ) مع التنويه بالإبداع الخاص لكل محلل في خضم الجلسة. عثراتٌ من الصعب جمعها معاً !"

يُكمل **خوري** بالتذكير "بموقف فرويد الصعب الذي شُغل مع محلّلين آخرين للحفاظ على ما هو جوهري وأساسي في نظرياته المتوارثة، وبنفس الوقت تمهيد الطريق أمام الوسائل المهدِمة للأبحاث التي ستفلت طبعاً من يده".

فما هو خاص بنقل المعرفة – الذي يكمن بنقل تجربة اللاوعي – يكون بإقامة "جدلية شدّ حبال مستمرة ما بين الإبداع الموضوع دوماً على المحك (تقنياً ونظرياً) وما بين التنظيم المؤسساتي. وإلاّ تميل عندها كفّة الميزان لِناحية الإبتكار الفطري الذي يمكن أن يصل إلى التطرف التقني (التحليل المتبادل لفرنزي، الجلسات القصيرة للاكان ... الخ) أو عكسياً لجانب التراتبية البيروقراطية التي تتناقض مع فكر الإكتشاف الفرويدي".

ويستطرد **خوري** بموضوع تنشئة المحللين ومسؤولية المؤسسة بمساعدتهم لإكتشاف مهارات خاصة بدل التقليد ورمي المعرفة في الممارسة العيادية.

بالنسبة إلى هذه النقطة، يعود **خوري** إلى مرجعية مصطفى صفوان، المحلل النفسي من أصل مصري، الذي يعتبر أن الإشراف على عمل المحللين الناشئين له أهميته، فهو لا يقوم على تلقينهم كيفية سياقة العمل التحليلي ولكن "تعليمهم أن يتعلموا".

بعد مقاربة الصعوبات التي تواجه المحلل النفسي أثناء عمله، وخاصة العلاقة بينه وبين الثقافة بالمقارنة مع الفنان، أثارت **منى شرباتي** موضوع الخيارات النظرية – التطبيقية.

"منذ زمن فرويد، هذا النهج يتقدم ويغنى وأحياناً في بعض المواقع، يخضع للمراجعة والنقد. وبمرور الزمن، توسّع نطاق المعالجة ليشمل طلبات تجاوزت حالات العُصاب واختلفت عنها: فاستقبل المحللون حالات مرضية كالسلوك الفعلي، الزجسية وثورات الغضب واليأس والفراغ والانهيار، والصعوبة في الترميز، وسائر الأمراض النفسية – الجسدية ....".

انطلاقاً من فرويد، ومن لحظة إلتقائه "العجائبي" بالكبت (نتيجة المواجهة مع الهيستيريا)، ومع عقدة أوديب وغريزة الموت (نتيجة بعض إخفاقات فرويد العيادية وردّات الفعل السلبية في العلاج) ما سمح لمن خلفه من المحللين النفسيين إستناداً إلى البنيان التحليلي للمعلم، بالمغامرة صوب ما سميّ بالقديم البنيوي للإنسان، ما قبل الخيار الجنسي (الإنفعال، التفكير ...).

وتابعت **م. شرباتي:** "إن المحللين المحدثين وسط التعقيدات العيادية، إتجهوا للدخول بشجاعة ورهافة في تحليل تجارب مرضاهم من خلال تجاربهم الذاتية ما قبل المرحلة الأوديبية المبكرة وإشكالياتها، والاستغراق في مناطق ضبابية من تكوين شخصياتهم، صعبة الولوج: كلاين، بيون، وينيكوت، لاكان، فرّو ... وآخرون".

إننا ننوّه بإنجازاتهم النظرية – التطبيقية التي أثّرت مسارات التحليل النفسي.

هل تكفي قراءة نصوص هؤلاء الروّاد؟ أم علينا التعويل ايضاً على التحليل السريري العيادي؟

انني أميل إلى الاعتقاد بأن النظرية – هنا – بحاجة إلى دعم من التجربة التحليلية حيث تتداخل وتندمج في شخصية المحلل، لتطوير وإغناء أسلوبه. كما حال الفنان، على المحلل أن يفتش ويبني أسلوبه واكتشافاته الشخصية، التي غالباً ما تتمحور "حول النظرية التي أودت إلى هذا اللقاء المدهش والمرير أحياناً بحقائقه ! .."

أما بالنسبة **لوفيقة أبو حبيب كلاّسي،** فقاربت التنشئة التحليلية من منظارها الفلسفي، حيث التفتيش عن الحقيقة يبقى الهدف الكامن وراء كل علم ومعرفة.

فأكدت بأن "كل مؤسسة تطمس الحقيقة بطريقة أو أخرى ... لأن الحقيقة هي غير مشروطة ومطلقة، وإذا حاولنا مقاربتها جزئياً: نظرياً أو علمياً، فإننا نفقدها. خصوصاً حقيقة اللاوعي، الركيزة الأولية للتحليل النفسي، الذي ينساب من أيدينا في كل مرة نقربه".

ولكن المجموعة لها حسناتها، فإنها "تحتوي القلق الوجودي اللامتناهي الذي نلامسه في كل مرة نتواصل فيها مع لاوعينا أو لاوعي الآخر. وحلقة لقائها تكشف طعم الموت وحب الحياة في آنٍ. وسطها الفارغ يستطيع أن يلتهمنا، كما يمكن أن يحيينا بواسطة الكلمة".

و. كلاسي عدّدت أيضاً المخاطر والصعوبات التي تواجه كل مؤسسة تحليلية، وتساءلت: "كيف يمكننا تنشئة محللين يقبلون أن يتيهوا في حنايا الريبة؟ كيف يمكننا أن نتعايش في جمعية يتعرض رحمها لكل أنواع الهجمات الممكنة، من حقد، حسد، ونرجسية؟ كيف يمكننا أن نتلافى الإيحاء في هذه المهنة التي لا مناص منها من تداخل الأفكار واللاوعي؟".

ولا تنسى أخيراً **و. كلاسي** أن تنبه من خطر أساسي، وهو خطر الجذور، اسطورة أوديب، كما تاريخ التحليل النفسي في لبنان وموروثاته عبر الأجيال.

ولكنها تنهي بلمحة أمل للمستقبل: "هذا التحدي والمخاطرة، فلنقدم عليها!"

وبعد استراحة قصيرة،أُكمل اللقاء بمحاضرة **لرونيه روسّيون**، أستاذ علم النفس المرضي والعيادي في جامعة ليون II في فرنسا، كما شغل فيها منصب مدير قسم علم النفس نحو ثلاثين عاماً. محلل نفسي، عضو في الجمعية الباريسية للتحليل النفسي (SPP). لديه عدة اعمال كتابية، حائز على جائزة بوفيه Bouvet في العام 1991.

روسّيون أخذ مجامع السامعين بمحاضرة عنوانها : ***"ركائز التحليل النفسي: الترابط والتحويل".***

لخص خلالها أسس المنهجية التحليلية التي هي الإصغاء للترابط الكلامي الحر. أما الفائدة الحالية في التركيز على الترابط في ممارسة التحليل النفسي، يكمن في تلاقي الأبحاث العلمية حالياً ما بين التحليل النفسي ومبحث الجهاز العصبي (Neurosciences)، الذي يؤكد بأن الدماغ البشري يعمل على مبدأ الترابط.

روسّيون الذي هو عضو في "الحلقة التحليلية ومبحث الجهاز العصبي". لا يتوانى عن البحث في الطريقة التي يمكن أن تغّني هذين العلمين بدل أن يتواجهوا بعداوة. فلقاء العلمين يُضفي تجدداً أكيداً على الفكر الفرويدي والتحليل النفسي.

بالنسبة إلى **روسّيون**، الترابط هو من ركائز النشاط الفكري ومنه تنطلق القاعدة الأساسية في التحليل النفسي: التداعي الحر. نستطيع بواسطة نظرية الترابط أن نستكشف حالات عيادية صعبة، لا تستطيع التقنيات العلاجية الأخرى سبرها.

لأن الترابط في التحليل النفسي يؤخذ ببعده التعددّي، فهو ليس فقط كلامي، ولكنه يرتبط ايضاً بالمشاعر والتصرف. لذا، فالقاعدة الأساسية في الجلسة التحليلية هي التداعي الكلامي الحر كونه من صلب النظام النفسي. فعندما نصغي إلى الترابط الكلامي، ننطلق من فرضية أن فكرتين تتعاقبان يربطهما معنى أكيد.

وما يقترحه فرويد بالنسبة للتداعي الكلامي الحر، يعتبره **روسّيون** "المنهج الذي يتلاقى مع الترابط الطبيعي للعقل البشري".

كما وعرض **روسّيون** مسألة أنظمة الكبح التي تُقاوم العمل الترابطي انطلاقاً من تصور لفرويد وضعه عام 1895، والحلقات الضائعة في الترابط وعلاقتها مع التحويل في الجلسة التحليلية:

"الحلقة المفقودة في الترابط تتفعّل في وضعية التحويل".

تلا المحاضرة مناقشة مع الحضور، على ضوء أهداف الجمعية، تمحورت حول الروابط ما بين التحليل النفسي والطب النفسي، مسألة الثلث – الغيري في التحليل، تنشئة المحلل ونماذج التنشئة الممكنة، كما وضعية جمعيات التحليل النفسي بألنسبة للهجمات الحالية والآنفة.